ما عساه يثبت أمام وطأة الزمن؟
رياضة روحيّة لأخويّة شــراكة وتحــرّر
ريميني، في 12 نيسان/أبريل 2019

تدوينات من مقدّمة خوليان كارّون

قد نكون وصلنا إلى ههنا مدركين أكثر من أيّ وقت مضى أنّنا عاجزون عن جعل الأشياء الجميلة التي تحدث لنا في الحياة تدوم. وقد نكون مدركين اليوم أكثر من أيّ وقت مضى مدى حاجتنا إلى شخص يمكنه الثبات أمام وطأة الزمن مستجيبًا لحاجتنا الهائلة إلى الديمومة والاستمرار.
فلنطلب إذن الروح القدس، الوحيد القادر على الثبات والاستجابة لكلّ الرغبة في الملء التي تشكّلنا.

هلمّ أيّها الروح القدس

أبدأ بقراءة للرسالة التي بعث بها إلينا قداسة البابا: «بمناسبة الرياضة الروحيّة التي تجمع المنتمين إلى أخويّة شراكة وتحرّر في ريميني، يرافقهم هذا العام موضوع مهمّ هو "ما عساه يثبت أمام وطأة الزمن؟" يتقدّم الحبر الأعظم بعواطفه الودّيّة، ويتمنّى بأن تكون ذكرى تضحية المسيح وتجسّده في التاريخ المساعدة الملموسة التي يقدّمها الله الآب للتغلّب على كلّ الشدائد وعلى رداءة الزمن الحاضر. وإذ يدعو البابا فرنسيس إلى التحديق في علامات الأزمنة وإلى التعرّف في العديد من قصص القداسة إلى فرصة بناء مسكن الله في العالم، يبعث إليك من كلّ قلبه، بشفاعة السيّدة العذراء مريم، النعمة الرسوليّة الملتمسة شاملا بها بكلّ سرور جميع الحاضرين وعائلاتهم والحركة بأكملها. الكردينال بياترو بارولين، أمين سرّ قداسته».

1 - سؤال لا يمكن إلغاؤه

لقد فوجئت جدًا بالاهتمام الذي أثاره السؤال الذي حدّدناه كعنوان لأيّامنا هذه معًا: "ما عساه يثبت أمام وطأة الزمن؟" وهذا ما يمكن ملاحظته من خلال عدد المساهمات التي أرسلتموها: ألفان. إنّني ممتنّ شديد الامتنان للمساعدة التي تقدّمونها لي في المسيرة المشتركة. لقد حدث هذا مع الطلاب الجامعيّين الذين وقعوا في مأزق أمام نفس السؤال. لكنّ المسألة بالنسبة لنا، نحن البالغين، تكتسب بُعدًا أكبر، لأنّ وراءنا سنوات وتاريخًا أطول، وبالتالي المزيد من المعلومات التي تسمح لنا بالردّ عليها. لهذا السبب قرّرنا طرح نفس السؤال في صلب رياضة الأخويّة، لأنّه يتعيّن علينا نحن أيضًا القيام بنفس التحقّق.
لقد كان تلقّي السؤال مفاجأة بالنسبة للكثيرين منكم، الأمر الذي أثار الامتنان قبل كلّ شيء. «لقد شعرت بموجة من الامتنان العارم»، تكتب إحداكم. ويقول آخر: «اسمح لي بأن أشكرك على هذا السؤال الذي أردتَ أن تشارك به كلّ فرد منّا. لقد أعاد إلينا الوعي بأنّ كلّا منّا هو قطعة من الكاريزما الذي أثّر في حياتنا والذي يجعلنا هنا الآن لنأخذ سؤالك على محمل الجدّ». ويكتب آخر: «بامتنان هائل أنتظر الرياضة الروحيّة القادمة. فقلبي، على الرغم من التعب الذي يعتريه في الكثير من الأحيان، ينتظر. ماذا ينتظر؟ ينتظر سماع الربّ يتكلّم مرّة أخرى، لأنّ لا شيء يملأ قلبي مثل هذا الأمر، ولا شيء يتحدّى عقلي مثل ذلك، أي لا شيء يعزّز إنسانيّتي مثل هذا! يا لها من نعمة حدثت لي!».
إنّ الاهتمام الذي أثاره في الكثيرين منكم لهو العلامة على أنّ السؤال المطروح لم يُعتبر شيئًا مجرّدًا، بل سؤالا وجوديًّا، لمس وترًا حسّاسًا فينا، واعترض مسألة حاسمة في حياتنا، لا يمكن التهرّب منها. يدلّ الاهتمام على

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione

مدى شعورنا بالأهمّيّة الملحّة لديمومة الأشياء. وهذا ما يثير الدهشة أكثر، لأنّنا نعيش في مجتمع سائل، وبالتالي اعتدنا على حقيقة أن لا شيء يدوم. في الواقع، إنّ نظرة على الوضع، على نمط الحياة الذي يميّز الكثيرين منّا، من الشباب والبالغين، تكشف عن عدم ثبات، وتقلّب، وعن قلقلة مستمرّة من التصوّرات المتباينة. نحن في غالب الأحيان في خضمّ دوّامة من العواطف والمشاعر، حيث يتمّ بناء كلّ شيء وتفكيكه بسرعة كبيرة؛ وبالتالي، نحن بسهولة ضحايا خيبة الأمل. لا شيء يبدو أنّه يثبت، الزمن يستهلك ويُفرغ كلّ شيء؛ وما حدث بالأمس يفقد تأثيره علينا، وسحرَه.

هذا ما قاله جورجو غابر في "الفرح غير المنطقيّ *Illogica allegria*: «أعرف عن العالم وأيضًا عن غيره / أعرف أنّ كلّ شيء يخرب».[1] ويردّد فاسكو روسّي صداه قائلا: «لا شيء يدوم، لا شيء يدوم / وهذا ما تعرفه».[2]

ولكن إذا كان لا شيء يستمرّ، فلماذا نحن غير راضين، ولماذا نحاول - بدلاً من ذلك - ترويض أو تخدير الإلحاح من خلال اللجوء إلى بعض العقّارات، كما يفعل هويلبيك في شخصيّة روايته الأخيرة؟ فهو يكتب أنّ السيروتونين «قرص أبيض صغير، بيضاويّ، قابل للقسمة. لا يخلق ولا يحوّل، بل يفسّر. فما كان نهائيًا يجعله عابرًا؛ وما كان لا مفرّ منه يجعله عارضًا. ويوفّر لبعض الوقت تفسيرًا جديدًا للحياة، هو أقلّ ثراء، ومصطنعٌ أكثر، ويتميّز ببعض الصرامة. إنّه لا يوفّر أيّ شكل من أشكال السعادة، ولا حتى الارتياح الحقيقيّ، فعمله من نوع مختلف، ففي تحويله الحياة إلى سلسلة من الإجراءات الشكليّة، يسمح بالخداع. لذلك فهو يساعد البشر على العيش، أو على الأقلّ على عدم الموت. غير أنّ الموت ينتهي بفرض نفسه، والدروع الجزيئيّة تتشقّق، وتستأنف عمليّة التفكّك مسارها».[3]

لا يمكننا إلغاء السؤال الذي يتردّد في هذه الرياضة الروحيّة، فهو يعود، بحتميّته المطلقة. «هذه المأساة [الحياة] [...] - على الرغم من إمكانيّة التعاطي معها على أنّها لعبة، والتي يعتبرها بسطحيّة جميع أنواع المشكّكين والجهّال السعداء - هي المأساة الوحيدة. ولا يمكن تجنّبها دون التخلّي، في نفس الوقت، عن الحياة. باختصار، المأساة جدّيّة. وحياتنا ليست بمهزلة، لسبب بسيط هو أنّها فريدة من نوعها، ولا يمكنك تغيير دورك: يمكنك فقط رفضها».[4]

2 - أخذ السؤال على محمل الجدّ هو أوّل بادرة صداقة

إنّ أوّل بادرة صداقة نحو أنفسنا وفي ما بيننا هو في عدم إلغاء هذا السؤال، بل أخذه على محمل الجدّ. وتتمثّل أوّل بادرة صداقة من جانب المريض نحو نفسه في أخذ مرضه على محمل الجدّ. هذا بسيط. وإذا كان لديك صديق مريض، فإنّ أوّل بادرة صداقة نحوه هي دعوته للاعتناء بنفسه. على العكس من ذلك، هناك تخلّ واستسلام هو الدليل على عدم وجود مودّة تجاه نفسنا.

لهذا السبب، وفي أوّل صفحة من كتابه "في البحث عن الوجه الإنسانيّ"، حذّرنا دون جوسّاني من أنّ «العقبة الكبرى أمام رحلتنا الإنسانيّة هي "إهمال" الأنا». النقطة الأولى في رحلة ما للإنسان هي «عكس هذا "الإهمال"»، أي «الاهتمام بنفسه»، بشخصه. وهو اهتمام قد يبدو واضحًا، «في حين أنّه ليس البتّة كذلك»، إذ يكفي أن ننظر إلى سلوكنا المعتاد لنرى «مدى شقوق الفراغ الكبيرة التي تنفتح في النسيج اليوميّ لوعينا ومدى الذاكرة المفقودة».[5]

الشرط الأوّل الذي يذكّرنا به دون جوسّاني هو شعور بالمودّة نحو أنفسنا، كبادرة أولى من الصداقة مع أنفسنا. "إذا كانت هذه [...] المودّة لما هو إنسانيّ - وليس المودّة للإنسانيّ ككائن جماليّ، يُنظر إليه ويُعتبر بطريقة

[1] «L'illogica allegria», parole di A. Luporini, musica di G. Gaber, 1981-1982, © Edizioni CURCI.
[2] «Dannate Nuvole», parole e musica di V. Rossi, 2014, © EMI.
[3] M. Houellebecq, *Serotonina*, La nave di Teseo, Milano 2019, p. 331.
[4] D. de Rougemont, *La persona e l'amore*, Morcelliana, Brescia 2018, p. 57.
[5] L. Giussani, *Alla ricerca del volto umano*, Rizzoli, Milano 1995, p. 9.

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione

شاعريّة، بل المودّة الإنسانيّة بصفتها تعلقًا ملؤه الاحترام والرحمة، والشفقة، تجاه ذاتنا، والمودّة كأن يكون لك نحو نفسك بعضٌ من ذاك التعلّق الذي كانت والدتك تكنّه لك، خاصّة عندما كنتَ صغيرًا (وحتّى الآن وقد أصبحت كبيرًا) - إذا لم يكن لدينا بعضٌ من هذا، نحو أنفسنا، فكأنّ الأرض التي سنبني عليها مفقودة».[6]
لذلك، فإنّ «الشرط الأوّل [...] لتحقيق الحركة [...] كحدث [...] هو بالتحديد هذا الشعور بإنسانيّتنا: "المودّة لنفسنا».[7] تكتب إيتّي هيليسوم «ها هي البداية، البداية الأولى: خذ نفسك على محمل الجدّ [...]. هذا هو بالضبط ما يمكن القيام به مع القريب أيضًا: إرشاده أكثر فأكثر في اتجاه نفسه، الإمساك به ومنعه من الفرار من نفسه، مسكه بيده ومرافقته إلى الينابيع التي تنتمي إليه».[8]
من لا يلغي السؤال، بسبب عاطفة مجرّبة تجاه نفسه، هو الوحيد القادر على طرحه على الآخرين. لذلك، فالصديق الحقيقيّ هو الذي يطرح السؤال، كما طرحها علينا دون جوسّاني: «ما عساه يثبت أمام وطأة الزمن؟».[9] إنّه سؤال يجبرنا على أن نكون نحن أنفسنا ولا يدعنا ننزلق إلى العدم. هذا ما كتبه كثيرون منكم. أقرأ بعض مساهماتكم: «شكرًا لك على إيقاظي من سباتي عبر إرسالك السؤال التالي: "ما عساه يثبت أمام الزمن؟"». «أعتقد أنّ السؤال الذي طرحته يمكن أن يكون حقًا سؤالًا مطروحًا عليّ أنا وليس من أجل شيء آخر، مع الاعتقاد المعتاد بأنّ هناك من سيجيب حتمًا». «شكرًا على سؤالك هذا، والذي "يلاحقني" مذ قرأته، ولا يتركني وشأني. شكرًا جزيلا لكيفيّة استحثاثك لحرّيّتنا ولكيفيّة دعوتنا للذهاب إلى العمق، كلّ وفق ظروفه الخاصّة». «قبل أيّة كلمة، أودّ أن أخبرك أنّ حثّك هذا ساد أيّامي: رفقة عميقة عند فتحي عينيّ في الصباح وعند إغماضها ليلا».
هذا هو السؤال الذي لا مفرّ منه في نهاية المطاف. يكفي أن تضيع الخبرة التي يعيشها المرء مع صديق أو مع الحبيب كيما يبرز من جديد، حتى لو كان من الممكن صياغته بلهجة من الشكّ: ولكن، إذا انهارت أيضًا هذه الصداقة أو هذا الحبّ، فما الذي يثبت حقًا؟
هناك أغنية لفرانشيسكو غوتشيني، اسمها "وداعًا"، تصف هذه الظاهرة. فهي تتحدّث عن نهاية قصّة حبّ: «كان من السهل أن نعيش في ذلك الوقت، كلّ ساعة»، «كان يبدو أنّنا وجدنا المفتاح / السرّيّ للعالم»، «وكان لقاؤنا بمثابة ولادة من جديد. / لكنّ كلّ قصة لها نفس الوهم، والنتيجة / والخطأ هو ظنّنا أنّ قصّة عاديّة كانت قصّة ممتازة»، «الزمن يتلفنا ويسحقنا».[10]
إنّها خبرة توثّقها أيضًا بعض مساهماتكم؛ على سبيل المثال هذه المساهمة: «لقد أصابني التقدّم بالسنّ بالمزيد من القساوة، هي عبارة عن دفاع أمام ما يحدث حتى لا أضطرّ إلى المعاناة منه. الحقيقة هي أنّ الزمن يهدم، إنّه غربلة لا ترحم تبرز ما لم يتمّ الحفاظ عليه، وأنا أخاف للغاية من أن أكتشف أنّه لم يبقَ ما فيه الكفاية، فأضع طبقات من النسيان، وأغطّي، وأخادع، وأعدل أيضًا عن الاستمتاع بما هو جيّد، كيلا تطفو الآلام اللاواعية ولا تفتح صدعًا ليس بإمكاني إغلاقه. يسود نوع من الضيق، فأنزوي في الطقوس والعادات، كما يفعل كبار السنّ، لذلك تبقى أجزاء من حياتي في الخارج بعناية. حتى تجربتي في الحركة أصبحت على المدى الطويل "عمّة عجوز" متعلّق بها، تشبه بكلّ أسف دمية نتعلّق بها، أو مخدّرًا أصبح مع الوقت إدمانًا ولم يعد ينفع. أعلم أنّ النقطة تكمن هنا، وأنّني كلّما سعيت للسيطرة، وكلّما أمسكت بنفسي، بقي القليل، وبرز القليل. أعلم أنه يجب عليّ أن أتعلّم تقديم ما يؤلمني أكثر، ما لا يمكنني إصلاحه، وفي أحسن الأحوال ما يمكنني أن أخفيه، كما نفعل مع الغبار تحت السجّادة».
إنّه نفس الاستنتاج المرير الذي تخلص إليه عبقريّة شارل بودلير الشعريّة: «لم يكن شبابي سوى زوبعة قاتمة / اخترقته هنا وهناك الشموس اللامعة / فقد عبث المطر والرعد ببستاني / فلم يُبقيا فيه إلا القليل من الثمار الذهبيّة / وها إنّ أفكاري قد بلغت خريفها / ولا بدّ لي من استعمال الرفش والمسلفة / لأعيد تنظيم هذه المزارع التي

[6] L. Giussani, *Uomini senza patria (1982-1983)*, Bur, Milano 2008, p. 291.
[7] *Ibidem*, p. 294.
[8] E. Hillesum, *Il bene quotidiano*, San Paolo, Cinisello Balsamo (Mi) 2014, p. 44.
[9] راجع خوليان كارّون ولويجي جوسّاني، حيّ أي حاضر، ملحق مجلة تراتشي، عدد تشرين الأوّل/أكتوبر 2018.
[10] «Farewell», parole e musica di F. Guccini, 1993, © EMI-BMG.

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione

غمرتها المياه / وحفرت فيها حُفرًا واسعة كالقبور / من يدري ما إذا كانت هذه الأزهار الجديدة / التي كنت بها أحلم / ستجد في التربة المغسولة كالرمل / غذاءها الرمزيّ الذي يبعث فيها النشاط / أيّها الألم إنّ الزمن يُبلي الحياة / والعدوّ الغامض الذي ينهش قلوبنا / على دمنا المسفوح ينمو ويقوى».[11]

إنه الخوف من أن يصبح كلُّ شيء في النهاية عدمًا، وأن يكون كلّ شيء مخادعًا ومظهرًا، كما يقول أوجينيو مونتالي: «ربّما وأنا ذاهبٌ في صباح أحد الأيّام في جوّ شفّاف / جافّ، سألتفت وأرى حدوث المعجزة: / العدم من ورائي، والفراغ من ورائي / مع رعبِ من في سَكَر».[12]
لا يسمح لنا غوتشيني أو بودلير أو مونتالي بالعودة إلى أمورنا كما كان عليه حالنا من قبل، لأنّهم يضعوننا أمام إلحاح الحياة، فهم بتشكّكهم أو عدميّتهم يجبروننا على التعمّق في السؤال. وإلا لعُشنا في يأس. كما يصف ميشال هويلبيك: «بدون أيّة رغبات أو أسباب للعيش [...]، حافظت على اليأس عند مستوى مقبول، يمكننا أن نعيش في يأس، فمعظم الناس يعيشون على هذا المنوال، وقد يتساءلون بين الفينة والأخرى عمّا إذا كان بإمكانهم الانسياق إلى نسمة من الأمل [...] ومن بعدها يجيبون سلبًا. ومع ذلك يصرّون، وهو لمشهدٌ مؤثّر».[13]

لكنّ الصديق ليس وحده من يطرح السؤال، بل هو كذلك من لا يتراجع أمام مداه، فيهرب أو يشتّت انتباهه؛ لذلك ليس فقط من يطرح السؤال، بل أيضًا من يأخذ الأمر على محمل الجدّ. لقد جئنا إلى الرياضة الروحيّة من أجل هذا: للحصول على مساعدة في العيش في الحقيقة، دون الاضطرار إلى النظر إلى جانب آخر لأنّنا نخشى من كلّ شيء، ونخاف من العدم.
يسأل أحدكم «من يدعم عملي ووحدتي؟ من يرافقني في اختيار صعب؟ كيف يمكن إنقاذ لحظتي؟ بعد ثلاثين عامًا من التجارب التي أغنتها موهبة الإيمان، بمرور الوقت، فإنّ كلّ الأهداف الجزئيّة التي حدّدتها لنفسي وما زلت أحدّدها (بعضها حقّقتُه) تترك مجالًا لا يرحم لكي أطرح على نفسي هذا السؤال. والآن، لأقلّ من هذا السؤال [دون أخذ هذا السؤال بجدّيّة] لم أعد أرغب في تحريك إصبع من أصابعي. لا مع العائلة ولا في العمل ولا مع الأصدقاء ولا حتّى مع أشخاص مجهولين».

3 - الانتظار

في مجيئنا إلى هنا، نريد أن ندعم بعضنا بعضًا في الصراع الذي يقوم كلّ منا به ما بين عدم توقّع أيّ شيء بعد الآن وعدم القدرة على التوقّف عن التعامل مع تلك الرغبة في أن نكون سعداء التي تشكّلنا، أي مع الرغبة بسعادةٍ تدوم، ولا تذوب بظرف يوم أو موسم.
كم هي مؤلمة وكم هي منتشرة مأساة من يعتقد أنّه لا توجد إجابة على السؤال الإنسانيّ، لكنّه مع ذلك لا يستطيع محوه. هذا ما يصفه ليون تولستوي: «ينظر الرجل حوله ويبحث عن إجابات على سؤاله، فلا يجد شيئًا. يجد من حوله عقائد تقدّم إجابات على أسئلة لا يطرحها على الإطلاق، لكنّ إجابة على السؤال الذي يطرحه على نفسه ليست موجودة [...]. ويجد نفسه وحيدًا أمام عالم بكامله، مع أسئلته الرهيبة التي تحزّ في نفسه».[14] وحيدًا.

نشعر أحيانًا حتى عند الأصدقاء بالخوف من بعض الأسئلة، كما يكتب لي أحدهم: «على الرغم من كل ما عشته وسمعتُه ورأيتُه، في هذه اللحظة التي تطرح فيها عليّ السؤال، أصرف انتباهي حتى لا أشعر باليأس، لأنّ ثقل الحياة قويّ للغاية، وبخاصّةٍ الخوف من ألا تكون الأمور أبديّة، وأن تفلت؛ فالوقت يمرّ ولا يبقى شيء. عندما

[11] C. Baudelaire, «Il nemico», in Id., *I fiori del male*, Feltrinelli, Milano 1991, pp. 27-29.
[12] E. Montale, «Forse un mattino andando in un'aria di vetro...», *Ossi di seppia*, in Id., *Tutte le poesie*, Oscar Mondadori, Milano 1990, p. 42.
[13] M. Houellebecq, *Serotonina*, op. cit., p. 221.
[14] L. Tolstoj, *Sulla vita*, Feltrinelli, Milano 2018, p. 78.

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione

أطرح هذه الأسئلة على أصدقائي، أشعر وكأنّني من المرّيخ، كشخص "مهووس بمعنى الحياة ويخاف من الموت"؛ لذلك انسحب، وأفكّر بيني وبين نفسي، يبدو أن لا شيء يثبت أمام وطأة الزمن».
لكنّ هذا السؤال بالتحديد، الذي يحزّ في النفس، يدفع خورخي لويس بورخيس إلى البحث دون توقّف عمّا يمكن أن يجيب عليه: «سوف أصرّ على البحث عنه حتّى اليوم الذي / أقوم فيه بآخر خطواتي على الأرض»،[15] ملزمًا نفسه بهذه الطريقة بأن يبقى مخلصًا للنهاية مع ذاته.
قد يبدو في بعض الأحيان أنّ طرح السؤال هو ضربٌ من الجنون. ومع ذلك، فإنّ الضرورة الملحّة التي نتحدّث عنها تشكّل أساسًا هامًا لدرجة أنّ الإنسان المُخلص، على الرغم من أيّ منطق سليم في الظاهر، لا يمكنه أن يتهرّب منه في نهاية المطاف. لذلك يتمرّد ألبير كامو ويؤكّد ويصرخ بحقيقة هذا الإلحاح الذي لا مفرّ منه، من خلال شخصيّة كاليغولا: «لكنّني لست مجنونًا. بل لم أكن أبدًا بهذا القدر من الوعي. لقد جرّبت ببساطة عطشًا مفاجئًا للمستحيل [...]. فالأشياء، كما هي عليه، لا يبدو لي أنّها مريحة. [...] وهذا العالم، كما هو عليه، لا يطاق. لذلك فأنا بحاجة إلى القمر، أو السعادة، أو الخلود: إلى شيء، لنقل، من الجنون، طالما أنّه ليس من هذا العالم».[16]

تقودنا الصعوبة في العثور على إجابة إلى أن نتساءل ما إذا كان ما نبحث عنه حلمًا. ليس لدى الشاعر الأسباني أنطونيو ماتشادو الجرأة على طرح هذا السؤال بجدّيّة فحسب، بل هو يشير أيضًا إلى الشرط الذي يجعله قادرًا على اعتراض علامات الإجابة، في حال وصولها: قلب يقظ، ينظر ويستمع. فيكتب: «هل غفا قلبي / يا خلايا نحل أحلامي، / ألا تعملون بعد الآن؟ هل جفّت / ناعورة أفكاري، / وفرغت الأواني، / في دورانها، وامتلأت بالظلّ؟ / لا، أن قلبي لا ينام. / قلبي مستيقظ، مستيقظ. / لا ينام ولا يحلم، بل ينظر، / والعينان الصافيتان مفتوحتان، / وإلى الإشارات البعيدة تصغي / على شاطئ الصمت العظيم».[17]
عندما نأخذها على محمل الجدّ، تقودنا الحياة إلى هناك، إلى شاطئ الصمت العظيم، أي إلى السرّ، الذي يمكننا فقط أمامه أن نبقى بعيون صافية مفتوحة وواضحة، في انتظار بعض الإشارات من السرّ نفسه، ومصغين إلى إيماءة منه. وحده من في هذا الموقف من الانفتاح الأصليّ يمكنه أن يدرك، عند ظهوره، طلوع استجابة إلى رغبة القلب، والتعرّف إلى علامات ظهوره. طرح السؤال على أنفسنا، وإطلاق العنان له، يجعلنا يقظين لاعتراض أيّ جزء من الردّ، أينما كان.
هذا ما تقوله بشكل جيّد قصيدة كتبها باتريسيو باربارو: «العين تتطلّع. [...] وحدها يمكنها أن تلاحظ الجمال [...] فالجمال تمكن رؤيته لأنّه حيّ وبالتالي حقيقيّ. وبكلمات أفضل، قد يحدث أن تراه. [...] المشكلة في أن تكون لك عينان ولا تعرف كيف ترى، ولا تنظر إلى الأشياء التي تحدث. [...] عينان مغمضتان. عينان لم تعودا تريان. لم تعودا فضوليّتين. لا تتوقّعان حدوث أيّ شيء بعد الآن. ربّما لأنّهما لا تعتقدان أنّ الجمال موجود. ولكن في صحراء طرقاتنا يمرّ الجمال، مخترقا الحدّ المحدود ويملأ أعيننا برغبة غير محدودة».[18]

4 - غير المتوقّع

الجمال يمرّ، ويحدث، دون أن يطلب منّا إذنًا، ويتحدّى كلّ شكوكيّة، وكلّ عدميّة. وإذا كان المرء منتبهًا، يمكنه اعتراضه. كلّ ما يطلبه منّا هو اليقظة لمفاجأته عندما يمرّ. يكتب ألبير كامو في كتابه المفكّرات: "لا يصبح الإنسان عظيمًا بفضل العناية والإتقان. فالعظمة تأتي، إن شاء الله، مثل يوم جميل».[19]
تدور حياتنا كلّها في اعتراض اللحظة التي يمرّ فيها الجمال أمام أعيننا. كيف يمكنني أن أدرك أنّني اعترضته؟

[15] J.L. , «Cristo in croce», in Id., *I congiurati*, Mondadori, Milano 1986, p. 17.
[16] A. Camus, «Caligola», atto I, scena IV, in Id., *Opere*, Bompiani, Milano 1973, p. 664.
[17] A. Machado, «S'è addormentato il mio cuore?», LX, *Solitudini (1899-1907)*, in Id., *Tutte le poesie e prose scelte*, Mondadori, Milano 2010, p. 107.
[18] P. Barbaro, «*Ah uno sguardo* – dedicata a Pasolini», in «Una domanda a cui non so rispondere», a cura di F. Pierangeli, *30Giorni*, n. 11, 2000.
[19] A. Camus, *Taccuini. III, 1951-1959*, Bompiani, Milano 1992, p. 34.

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione

أرى ذلك لأنّه يفتح فجأة عينيّ، ويوقظ رغبتي.
ولكن ما هو الجمال الأكثر ضرورة؟ إنّه حدوث تفضيل، التفضيل الأساسيّ الذي نتوقّع اختباره جميعًا. لأنّ التفضيل هو طريقة كلّ صحوة، كلّ تحرّر، وكلّ ولادة للإنسانيّ، للأنا.
يقول أحدنا: «قبل عام، قمنا بتعيين مدرّسة شابّة للتدريس في المدرسة الابتدائيّة. وكانت تعيش نفس حالة التشويش التي يعاني منها العديد من الشباب، لا سيّما القلق الناجم عن عدم كونها أبدًا على مستوى الظروف. قبل بضعة أيّام، جاءت إليّ وأخبرتني أنّها منذ وصولها إلى المدرسة تشعر بأنّ وضعها قد أصبح أسوأ من ذي قبل، لأنّ العديد من الأسئلة والجراح فُتحت. أجبتها أنّها إذن في أفضل لحظات حياتها، فالأسئلة والجراح تفتح أمام شيء يوفّر لنا الأمل إلى حدّ ما. فقالت لا، إنّ الجراح مؤلمة للغاية، وأنّها كانت تضع درعًا على الأقلّ، لكنّ هذا الدرع قد سقط في المدرسة. عندها أخبرتني قصّتها، مع كلّ المصاعب التي عانت منها. ثم ذهبت لفترة قصيرة إلى مدرسة نيومان، حيث عملت أيضًا لمدّة يومين. وعند عودتها قالت لي: "لقد حدث لي شيء ما في نيومان. شيءٌ لا أعرف ما هو. لكنّ الناس لاحظوا ذلك، فهم يقولونه لي. يقولون لي إنّني أسعد وأكثر هدوءاً. هذا ما يقوله لي رفاقي وعائلتي. أنا أيضًا أرى أنّ شيئًا ما قد حدث لي. ماذا؟ لا تقل لي إنّه الله، لأنّني لا أستطيع قبوله". قلت لها ألا تقلق على الله، ولكن أن تكون وفيّة حتى النهاية لتجربتها. سألتني: "لماذا حدث لي هذا الشيء؟ هناك كثيرون ممّن لا يؤمنون ولم يحدث شيء لهم. لعلّ ذلك يعود إلى حاجتي، إلى جرحي المفتوح؟"».
هكذا إذن، يعترض الجمال الذي يمرّ في صحراء طرقاتنا أولئك الذين يحتاجون حقّا، أولئك الذين لديهم هذا الجرح وهذا النقاء.
ما أسهل التعرّف على الجمال – أي على وضوح تفضيلٍ يوقظ أنانا - عندما يحدث! إنّ كاوننا مختارين هو ما يجعلنا نصبح نحن أنفسنا. تقول قصيدة لبيدرو ساليناس: «عندما اخترتَني / - الحبّ هو من اختار - / خرجتُ من مجهوليّة الجميع الكبيرة / من مجهوليّة العدم [عندما يظهر الأنت فكما لو أنّه يسحبنا من العدم]. / ولكن عندما قلت لي: "أنتَ" / - لي، نعم، لي، من بين الجميع - / إلى أعلى من النجوم / أو المرجان حملتني [تحملني إلى النجوم]. / وفرحتي / بدأت تتحرّك، مقيّدة / إلى كيانك، في نبضك. / امتلاكا لنفسي أعطيتَني، / في إعطائك لي. / عشتُ حيّا. حتى متّى؟ [...] / سأكون واحدًا من بين الكثيرين / عندما لن أعود أمتلكك»،[20] فأنت حاسم جدًا بالنسبة لي لكي أصبح أنا نفسي.
لذا فإنّ السؤال الكبير المطروح أمامنا، أيّها الأصدقاء، هو التالي: هل هناك شيء، هل حدث شيء ما في حياتنا يتميّز عن كلّ شيء لا يدوم ويفقد تأثيره علينا؟ يكتب سورين كيركيغارد في يوميّاته «هنا الشيء المهمّ في الحياة: أن نرى لمرّة شيئًا، وأن نسمع شيئًا رائعًا، رائعًا لدرجة أنّ كلّ ما عداه لا يمثل شيئًا مقارنةً به، وحتّى لو نسيت كلّ شيء آخر، فذلك الشيء لن تنساه أبدًا».[21]
لذا يتعلّق الأمر بالنظر إلى كلّ ما حدث لنا لمعرفة ما إذا كان هناك شيء أثبت قدرته على الاستمرار، وعلى مقاومة الإفراغ الذي يمارسه مرور الوقت. هل حدث شيء، هل حدث شخص في حياتنا أثبت أنّه قادر على الثبات أمام وطأة الزمن؟ هل كان هناك شيء قادر على شبك حياتنا بشكل ثابت؟ إنّه السؤال الكبير الذي يجب على كلّ واحد منّا مواجهته، بالنظر إلى تجربتنا الشخصيّة، إذا كنّا لا نريد أن ينهار كلّ شيء.
«الشيء» الذي نتحدّث عنه يسميّه مونتالي «غير المتوقّع»: «حدث غير متوقّع / هو الأمل الوحيد». لكنّ الكثيرين يؤكّدون أنّ «من الحماقة قول ذلك»،[22] وفي بعض الأحيان هذا ما نعتقده نحن أيضًا.
ومع ذلك، لن يتمكّن أيّ كان من منع ظهور شيء جديد أمام أعيننا - لأنّ هناك من الحقائق في السماء وعلى الأرض أكثر من أيّ فلسفة من من فلسفاتنا، وفقًا لصيغة شكسبير العظيم[23] -: شيءٌ «لم يكن له أن يوجد وهو موجود هنا»، على حدّ قول دون جوسّاني في عام 1968، شيءٌ «لم يكن له أن يوجد لأنّنا لم نفكّر فيه مطلقًا، لم

[20] P. Salinas, *La voce a te dovuta*, Einaudi, Torino 1979, p. 195.
[21] S. Kierkegaard, *Diario. I (1834-1849)*, Morcelliana, Brescia 1962, p. 239.
[22] E. Montale, «Prima del viaggio», vv. 22-27, in Id., *Tutte le poesie*, op. cit., p. 390.
[23] «Ci sono più cose in cielo e in terra, Orazio, che non nella tua filosofia» (W. Shakespeare, *Amleto*, atto I, scena V).

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione

يكن لنا أن نفكّر فيه [ولا حتى تخيّله]، وهو موجود هنا».[24]
إذا كنّا قد أتينا إلى ريميني فلأنّ هذا الأمر «غير المتوقّع» قد حدث لنا مرّة واحدة على الأقلّ، على الأقلّ في مرحلة ما، فشبك حياتنا لدرجة أنّه جعلنا نشارك في مثل هذه اللفتة. إذا كنّا قد جئنا إلى ههنا فلأنّنا ما زلنا منفتحين على إمكانية لقاء ذلك "الأنت" الذي جعلنا نخرج من المجهوليّة، وجعل كلّ واحد منّا هو نفسه حقًا، فريدًا. الكثيرون منّا ينتظرون تجدّد هذا اللقاء.
مرّة واحدة على الأقلّ، في مرحلة واحدة على الأقلّ، حدث شيء نفتقده ونحنّ إليه. أحدكم يصفه بهذه الطريقة: «أفكّر في السؤال الذي أُرسل إلينا: "ما عساه يثبت أمام وطأة الزمن؟" يا له من سؤال! مواقف في الأسرة لا تتغيّر أبدًا، بل يبدو أنّها تحفر ببطء حفرة أكبر لنسقط فيها. علاقات وبُنى تبدو راسخة، ولكن يظهر أنّها لا توفّر في نهاية المطاف أيّة حماية. ليس ممكنًا لأنّ لا أحد يمكنه أن يضمن عدم إصابة شخص آخر بأذى شديد لدرجة أنّ الشخص الآخر لن يغفر له أو أنّ أعمق الصداقات، بناءً على الجريان الطبيعيّ للأمور، عاجلاً أم آجلاً قد تؤذي أو تخيّب آمالنا أو تتركنا وحدنا. وليست هناك بنية لا يستطيع عنفنا أو عنف الآخرين أن يفكّكها، وفقًا لمُثل معيّنة في الثورة والعدالة. ثمّ إنّ الاتّكال على طاقاتنا البشريّة أو على صلاحنا مثير تقريبًا للسخرية. بصراحة، بين الحين والآخر أنظر إلى حياتي فأراها كقبر ضخم. وفي المدّة الأخيرة، تمرّ أيّام بكاملها وأنا أشعر بهذا. من المثير للسخرية أيضًا أن أقول لنفسي: "يا سلام، الآن سأذهب إلى الرياضة الروحيّة وهناك سيخبرونني عمّا يثبت أمام وطأة الزمن، ثم أعود إلى المنزل وكلّ شيء سيكون مختلفًا". إذن لماذا آتي؟ أعتقد أنّني آتي من أجل الشيء الوحيد الذي يبدو أنّني قادر على تحديدها كأمر ثابت: آخر جاذبية غير قابلة للتدمير لشيء يعيش في الحركة ولا يمكنني الانفصال عنه. آتي للبحث عن الشيء الوحيد الذي أشعر حقًا بالحنين إليه».
لهذا السبب فلنطلب، أيّها الأصدقاء، أن يصل نظر الربّ إلى كلّ واحد منّا من جديد، في أيّ وضع كان، أن يصله ذاك التفضيل الذي جعله يولد من جديد، حتى يتمكّن من اختبار قيمة حياته الكبيرة وأنه غير محكوم عليه بأن أراها تنزلق إلى العدم.
لنطلب إذن أن يستحوذ علينا مرّة أخرى هذا التفضيل العظيم الذي يتوقّعه كياننا: «أنت عزيز في عينيّ»؛[25] أنت، وليس شخص آخر، وليس شخص آخر غيرك؛ أنت الآن، كما أنت، وليس عندما تتغيّر. الآن! أنت غير محكوم عليك بالانزلاق إلى العدم! لأنّك عزيز جدّا أمام عينيه.

إنّ أداة الالتزام التي نطلبها لأنفسنا هذه الأيّام هي الصمت. لذلك دعونا نساعد بعضنا البعض بجدّيّتنا، أوّلا وقبل كلّ شيء في احترامنا الصمت. فقد اعتاد دون جوسّاني أن يقول: «نحن نعيش يومًا أو أكثر بقليل معًا من أجل لحظة من الحقيقة الأكبر في حياتنا. لقد قدّمنا الكثير من التضحيات، والكثير منكم بتضحيات عظيمة حتّى يجيء؛ فلنحاول أن نستفيد لأكبر درجة ممكنة، ولنحاول أن نستمدّ منه فرح لحظة من الألفة مع الربّ أكثر اكتمالا من أفضل أيّامنا. إنّه التزام [...] يتعيّن علينا أن نحترمه، ويضمن نتائج جيّدة حقًا [...]. وأداة هذا الالتزام هي الصمت. [...] الصمت ليس في الحقيقة عدمًا، [...] إنّه صلاة، إنّه الوعي بأنّنا أمام الله، [...] إنّه طلب». لهذا السبب، «حتّى الكتب التي يقترحونها علينا يمكننا شراؤها في صمت»،[26] مساعدين بعضنا البعض. «نوصي بالصمت أوّلا عند الانتقال من مكان إلى آخر؛ ولنحافظ على هذا الصمت المطلق أثناء دخولنا إلى الصالون حيث ستساعد الذاكرةَ الموسيقى التي سنسمعها والصورُ التي سنراها؛ وهكذا سوف نكون في موقف استعداد لننظر، ونستمع، ونشعر بعقلنا وقلبنا ما سيقترحه الله علينا بطريقة ما». لأنّ «ما نفعله سويًا في هذا اليوم ونصف اليوم ليس سوى جانب من اللفتة المُحِبّة العظيمة التي يدفع بها الربّ - كيفما لاحظت ذلك - حياتك [وحياتي] نحو ذاك القدر الذي هو هو».[27]

[24] راجع خوليان كارّون ولويجي جوسّاني، حيّ أي حاضر، ملحق مجلة تراتشي، عدد تشرين الأوّل/أكتوبر 2018.
[25] سفر أشعيا 43، 4.
[26] L. Giussani, *La convenienza umana della fede*, Bur, Milano 2018, pp. 211-213.
[27] L. Giussani, *Dare la vita per l'opera di un Altro*, Esercizi Spirituali della Fraternità di Comunione e Liberazione, Rimini 8-10 maggio 1992, suppl. a *CL-Litterae Communionis*, giugno 1992, p. 5.

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione

وبالتالي، فإنّ الصمت هو من أجل النظر جيّدًا إلى هذه الأمور (عندما يصاب المرء بقرحة في المعدة، فإنّه لا يعالجها بعدم أخذها في الاعتبار، فهو يحملها في أيّ حال، وعدم مواجهة المشكلة يجعل حياته أثقل فحسب، ولا تطاق).
لدينا فرصة أن نكون معًا، أن نكون قادرين على النظر إلى كلّ شيء دونما خوف، مثل العشّارين الذين كانوا يذهبون إلى يسوع لأنّه كان بإمكانهم معه أن يكونوا هم أنفسهم، لم يكونوا بحاجة إلى أن يكونوا في مستوى معيّن، لقد احتضنهم كما كانوا عليه.
الصمت - على الأقلّ مرّة واحدة في السنة، دعوه يدخل في أعماق قلبنا! -، الصلاة، الترتيل، التعليمات التي سنقدّمها ليست توجيهات رسميّة، بل هي اقتراحات حتى نعيش جميعًا هذه اللفتة بالجدّيّة التي تتطلّبها الحياة.
يمكننا أن نحيا حياة رائعة، أيّها الأصدقاء، ولكن يجب أن نرغب في ذلك.

© 2019 Fraternità di Comunione e Liberazione